دور الفلسفة في دراسة وحل مشكلات العصر الكبرى

د. معن النقري (*)

إنّ المشكلات التي تنتمي إلى دائرة تفاعل المجتمع مع الطبيعة ـ ومنها مشكلات الطاقة والغذاء والموارد الطبيعية والبيئة وغيرها ـ معقّدة ومركّبة بصورة خاصة، فهي تتضمّنْ في وقتٍ واحد كلاً من الجوانب الطبيعية والتقنية والاجتماعية، وصحيح أن الجانب الاجتماعي فيها حاسم، غير أن هذا لا يعني تجاهُل العناصر الطبيعية والتقنية كجوانب من كل مشكلة مما ذكر.

إن مجموعة مشكلات التفاعل بين المجتمع والطبيعة هي بالتحديد التربة الأكثر صلاحيةً لنموّ اتجاهات التقارب والتكامل بين العلوم، وبصورة خاصة بين مجموعات العلم الرئيسية الكبيرة: العلوم الاجتماعية ـ الإنسانية والعلوم التقنية والعلوم الطبيعية، وهذا الانسجام بين تعقّد تركيب المشكلات العالمية (الكوكبية) المذكورة ـ من جهة، وبين التوجُّه إلى تكامل العلم وتقريبها ـ من جهة أخرى، هو مثال ساطع على الانسجام الكامن الخفيّ أيضاً بين تطور المجتمع البشري ككل ـ من جهة، وتطور الفكر والتفكير البشري ـ من جهة أخرى، إنه مثال على الانسجام غير المرئي في عالم الإنسان، إذ يبدو أن جوهر وطبيعة المشكلات العالمية والبشرية ـ العامة لعصرنا يتفقان إلى حد بعيد أو يتطابقان مع جوهر وطبيعة التكامل العلمي العام كاتّجاه ملحوظ في تطوُّر علوم عصرنا.

وإضافةً إلى هذا الانسجام بين مجموعة مشكلات موضوعية وبين مجموعة علوم تدرسها، ثمة أيضاً انسجام داخل كلٍّ من المجموعَتين المذكورتَين وعلاقات متبادلة أو نوع من الوحدة والانتظام في منظومة، وهذا ما يصدق على صلة المشكلات فيما بينها، كما يصدق على صلة الجوانب التقنية والطبيعية والاجتماعية من كلّ مشكلة فيما بينها أيضاً.

إن السعي إلى توحيد وتركيب المجموعات الأساسية الثلاث المذكورة آنفاً هو أمر ضروري وصحيح ليس فقط لإنقاذ الفكر البشري من براثن

(*) جامعة دمشق.

التخصص الشديد والتفرع المستمرّ والتشرذم، بل وأيضاً، وبصورة خاصة، لأنه يترافق مع نشوء ومسار مشكلات العصر الكبرى ويُساعد على تسهيل حلِّها، لكأنّ ظهور وتأزّم مشكلات مركَّبة يترافق وينسجم مع ظهور وتطوُّر علوم مُركبَّة متكاملة، وهذا يعني أن دفع عملية التكامل العلمي إلى الأمام هو في حقيقتِه وسيلة لاستيعاب هذه المشكلات بصورة سليمة أيضاً.

لقد انتشرت في الأدبيات السوفييتية أعمال كثيرة حول مسألة تكامل العلوم، غير أن الربط بين ظاهرة هذا التكامل وظاهرة المشكلات العالمية التي تزداد تأزماً كاد يغيب في فترةٍ ما وبقي شبهَ معدوم حتى بداية الثمانينات.

من هنا نستطيع تبيُّن الدور الاستثنائي الذي يمكن أن تقوم به الفلسفة في مجال دراسة وحلّ المشكلات الكوكبية العالمية ووضْع المسألة في خصوصِها بشكل صحيح، إذ ان للفلسفة دوراً تكاملياً كبيراً ليس بين مجموعات العلم الأساسية المختلفة فحسب، بل وبين علوم كلّ مجموعة منفردة من هذه المجموعات. كما أن الفلسفة بقدراتِها التركيبية والشمولية أكثر قدرةً على فهْم الجوانب المختلفة للمشكلات الموضوعية ذاتِها - مشكلات العصر كل أو أيّ مشكلة عالمية معقّدة من بينها؛ والفلسفة هي الأقدر أيضاً على كشف الوحدة والتفاعل الخفيّ بين مركَّب هذه المشكلات ككل والجوانب المختلفة لها وبكلٍ منها - من جهة، ومركَّب العلوم التي تدرسها أو مركَّب مجموعات العلم الرئيسية - من جهة أخرى؛ وبهذا المعنى تستطيع الفلسفة أن تشغل دوراً مفتاحياً في التنسيق بين المعارف العلمية - العامة والمشكلات البشرية - العامة. وليس هناك علم جزئي قادر على استبدال الفلسفة أو القيام بدورها في هذا المجال، ولذا فمن المنطقي والطبيعي أن تكون المشكلات العالمية الشاملة موضوعاً ملائماً للدراسة الفلسفية، بل ومحتاجة إليها. ويبدو أن الفلاسفة لم ينتبهوا كفايةً ولم يعوا تماماً أهميةَ وضرورة هذا الدور للفلسفة تجاهَ سائر مجموعات مشكلات العصر وليس مشكلات دائرة التفاعل بين المجتمع والطبيعة فقط.

والنظرة الشمولية ضرورية لاستيعاب هذه المشكلات باعتبارها منظومة واحدة متكاملة ومتفاعلة وذات بنية دينامية متغيرة، مما يُساعد على الخروج عن إطار التصوُّرات الكمية الضيقّة عنها باتجاه تكوين منطلقات وتصورات نوعية متطوّرة. إن التقابل والتشابُه بين وظيفة الفلسفة وطبيعة المشكلات العالمية يتضح من الجوانب التالية:

1 - هذه المشكلات تكوّن منظومة شديدة التنوّع والتعقد وذات طابع تركيبي شامل، والفلسفة بدورِها هي العلم - أو الفرع المعرفي بعامَّة - التركيبي والأشمل.

2 - هذه المشكلات تهم البشرية جمعاء - ومن هنا تسميتها «بالبشرية العامة» - في حاضِرها ومستقبلِها، وكانت الفلسفة رائدةً دائماً في اهتمامِها بمصير الإنسان والإنسانية جمعاء.

3 - هٰذه المشكلات هي «مشكلات التطور العالمي» كما يصفُها كثيرٌ من الاختصاصيّين، والتطور العالمي وحركة تقدمِ المجتمع البشري - كل ذلك كان على الدوام حقلاً هاماً من حقول اهتمامات ودراسة الفلسفة، ولا سيما بعد تبلْور تعريفها وموضوعاتِها واعتِبارِها تدرس قوانين تطور المجتمع الأعمّ... وتهتم بدراسة بنيتِه الأساسية وقوى تحريكِه أو كبْحِه.

4 - المشكلات العالمية تزاوج في ماهيتها بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي، والفلسفة بدورِها هي التي تجمع بين الاثنين، إذْ تهتم بقوانين الطبيعة اهتمامَها بقوانين المجتمع.

باختصار فإن الربط بين مشكلات متباينة جداً مستحيل في غنىً عن دراستها فلسفياً لتكوين تصورات شمولية كلية تنسّق هرمونياً بين جوانب مختلفة طبيعية واجتماعية وإنسانية وثقافية - فكرية

وتربوية . . . الخ .

كما يُفتَرض أن الفلسفة العلمية وثيقة الصلة بالاتجاهات الأساسية لتطور العلوم وبذلك فإنها أكثر خبرةً في الاضطلاع بمهمة تفسير منشأ المشكلات الكوكبية العالمية وأسبابها وجوهرها ومسارات تطوّرها في خطوطِها العريضة، وتوضيح طابعها الدينامي المتحوّل، لا سيما وأن بعضها يغيب ليظهر ما هو جديد، كما يتغير محتوى المشكلة الواحدة. والفلسفة تستطيع تقديم وسائل وطرائق للدراسة وتقدر على وضع المنهج أو المنهجية الملائمين، إضافة إلى ضرورتها لبلورة وتقديم المنطلقات الأيديولوجية والقيمية لدراسة مشكلات العصر الكثيرة والتي تشمل - إضافةً إلى ما ذكرناه من بعض مشكلات دائرة التفاعل بين المجتمع والطبيعة - مشكلات دائرة العلاقات الاجتماعية المتبادلة، المحلية والدولية، مثل خطر الحرب النووية والنضال من أجل السلام العالمي، وإزالة تخلف البلدان النامية التاريخي الكوني، والتغلب على أخطار وآثار مشكلة التمدّين وإعادة بناء **العلاقات الدولية** على أسس عادلة بأبعادها الإعلامية والثقافية والعلمية - التقنية والاجتماعية - السياسية، والاقتصادية خاصة. هذا عدا المشكلات ذات الطابع «الأيديولوجي» والمرتبطة بالإعلام والتفجر المعرفي والثقافي والمهمات الجديدة المطروحة أمام التربية والتعليم؛ وكذلك مشكلات التقدم العلمي - التقني والرعاية الصّحّية وتزايد السكان.

أخيراً، ليس أيّ فلسفة قادرة على أن تقوم بهذه المهمات، ومن باب أولى ليس فلسفة التخصُّص الشديد الخاضعة والراكعة أمام شيطان قوانين تفرُّع العلوم وتعمُّق تخصِصُّها وتفاضِلها فيما بينها تحت ضغطِ انفجار المعارف البشرية وتناسلها الهندسي وتشتتِها، بل فلسفة المواقف الشمولية والكلية والمتكاملة والتي تستمد نسْغَها ليس من معارف بعينها، بل من تراثِها الأصيل السابق في كفاءةِ مواجهةِ مشكلاتِ أيّ عصر بجدارة وريادة وبالكيفية المناسِبة.

***

لقد تزايد الاهتمام بالدراسة **الفلسفية للمشكلات** العالمية، وليس فقط التركيز على الجوانب الاقتصادية والحقوقية القانونية والسياسية وغيرها، مع بداية الثمانينات بصورة خاصة في الأدبيات السوفيتية، والتي كانت قبل ذلك تهتم بالدراسات الفلسفية - الاجتماعية لمشكلات البيئة /المشكلة الأيكولوجية / ، أو مشكلات التفاعل بين المجتمع والطبيعة بعامّة، مع إهمال كثير من المشكلات ذات الطابع الاجتماعي الدولي نسبياً، عدا بعض الأعمال الموجّهة لانتقاد الأعمال الغربية («البورجوازية») ولا سيما التقارير المقدَّمة إلى نادي روما والتي بدأتْ تنتشر وتشتهر منذ بداية السبعينات.

لقد تطوَّر واحتدم الحِوار حول دور الفلسفة المباشر أو غير المباشر في دراسة مشكلات عالمية كثيرة، أو دراستِها بخاصة كمنظومة معقّدة موحَّدة دينامية متغيِّرة ومتنامية، وكان الاعتراف بهذا الدور للفلسفة واتضاحه ينموان ويتبلوران أكثر فأكثر متجاوزين الاقتصار والتركيز الكبير على مشكلات العلاقة بين المجتمع والطبيعة أو الاكتفاء بانتقاد الأعمال والتيارات والاجتهادات الغربية. كتب ڤ. زغلادين: «المشكلات العالمية لعصرنا هي في الوقت ذاتِه طبيعية واجتماعية. . . وقد تكون المشكلات العالمية تحديداً ومصيرُها مثالاً واضحاً مقْنِعاً على العلاقة المتبادلة العامة بين العمليات الطبيعية والاجتماعية الجارية على كوكبِنا»[1].

وكتب اختصاصيّو معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية عن وجود «عوامل طبيعية - جغرافيَّة، تقنية - إنتاجية، واجتماعية كوجوهٍ مختلفة لمشكلات عصرِنا العالمية. . . »[2].

كما كتب إ. فرولوف حول ضرورة «إنشاء فلسفة المشكلات العالمية، أي الأسس العقائدية، والمنهجية، والإنسانية، وطرق وطرائق حلّها علمياً واجتماعياً. . .»[3].

ثم بيّن فرولوف أنه «في إنشاء الاستراتيجية العلمية والاجتماعية لحلّ المشكلات العالمية. . . تلعب الفلسفة دوراً تنبُّؤياً ومحفِّزاً وتركيبياً. . . وعلى التحليل الفلسفي أن يثبت بصورة خاصة جدلية العوامل الاجتماعية والطبيعية ـ البيولوجية والبشرية للتطوّر في ظروف المشكلات العالمية»[4].

أمّا الأكاديمي ف. كونستانتينوف رئيس المجمع الفلسفي السوفييتي فيعترف أنه لدى فهم الفلسفة بمعناها الواسع يكون من الضروري إقْرار دورها في الإجابة على «مسائل العصر العظمى»، ودعا كونستانتينوف إلى تعميق دراسة الممارسة الاجتماعية، والمساعَدة على تنميتها إيجابياً، وإلى تعميم معطيات العلوم الطبيعية والاجتماعية (فكرياً. . .)، وتنمية التأمُّل والتفكير بالمشكلات الحياتية والمساعَدة على حلّها. . . «ليس هناك علم فرعي خاصّ مهما عظُمت أهميتُه يستطيع الإجابة على المسائل الجذرية للعصر، فهذه مسائل عقائدية، نظرية، فلسفية. . .»[5]. كما أنّ ب. ن. فيروسييف نائب رئيس أكاديمية العلوم السوفييتية لشؤون العلوم الاجتماعية كتب أن المنطلق التركيبي (ـ أو المركّب ـ المعقّد) والمؤسَّس على مبدأ وحدة المعرفة يصلح كقاعدة منهجية توحّد العلوم الاجتماعية والتقنية والطبيعية في سعْيها لمعالجة المشكلات الأكثر أهميةً والتي تقلق البشرية. . . وتحدَّث فيروسييف عن الوظيفة التكاملية للفلسفة كأساس لتقارب العلوم وتقْوية العلاقة المتبادلة بين المجموعات العلمية الرئيسية الثلاث[6].

وكتب فيروسييف في مكان آخر أن المنهج الذي تقتضيه «المعضلات الشاملة» (هكذا ورد التعريب). . . يُحذّر الباحثين من مغبّة إدخال عناصر النّصية والذاتية والميتافيزيقية في دراسة العمليات الاجتماعية ـ التاريخية الراهنة. . .»[7].

لقد عُقِدت في موسكو خلال آذار عام 1982 جلسة دورية لقسم «المشكلات العالمية للثورة العلمية ـ التقنية»، وفيها جرى تحديد اتجاهات رئيسية ثلاث لدراسة المشكلات العالمية من الناحية العلمية وهي:

المناحي الفلسفية ـ المنهجية للدراسات العالمية، دراسة منهج وتجربة النمْذَجة العالمية، توضيح المناحي الاجتماعية ـ السياسية والإيديولوجية للمشكلات العالمية؛

كما نوقِش في هذه الجلسة، بعامّة، كل ما يتعلق بمسائل ذات طابع فلسفي ـ منهجي ونظري ـ معرفي واجتماعي ـ اقتصادي وسياسي ـ إيديولوجي[8] كجوانب متباينة تُضيء موضوعَ الدراسة المذكور.

***

هٰذه بإيجاز شديد لمحة سريعة عن تركيز الاهتمام على دور الفلسفة في دراسة المشكلات العالمية في الأدبيات السوفييتية في فترة بدايات الثمانينات، ألاّ أن وطنَنا العربي خاصةً والعالم الثالث بصورة عامة أحرى بإبداء وتركيز اهتمام كهذا، وأحوج إلى دراسة مشكلات العصر الكبرى سعياً إلى فهْمها وتفسيرها والتمهيد للتحكّم في مساراتِها والمشارَكة في حلّها، لا سيما وأنّ هذه المشكلات تتمظهر في العالم الثالث بحدَّة ووضوحٍ متميزَين يجعلان من مفكِّريه أجدر وأكثر مسؤوليةً في التصدّي لهذه المهمة.

الفلسفة والعلاقات الدولية

لقد اعتدنا على اعتبار الفلسفة بعيدة عن دراسة ونظريات العلاقات الدولية، لا سيما وأن تجربتَنا العملية والفكرية، سواءً بسواء، اعتادت على التعامل مع «القانون الدولي» و«العلاقات الاقتصادية الدولية» و«السياسة الدولية»، أي مع جوانب علمية ـ اجتماعية مختلفة عدا ما هو فلسفي، على الرغم من أن حضور

الفلسفة ضروري دائماً في الحالات التي يكون فيها موضوع البحث والدراسة معقداً ومركباً وملتقى اهتمامات علوم مختلفة، سيما وأن هذه العلوم «الملتقية» على دراسة العلاقات الدولية اجتماعية أساساً وأقرب إلى الفلسفة في تكوينها مما الفصائل والمجموعات العلمية الأخرى.

في السنوات القليلة الماضية فقط تركّز الاهتمام على الجوانب الإيديولوجية والتأملية النظرية والقيمية من العلاقات الدولية ونشأت علوم جديدة في هذا المجال أيضاً: علم نفس العلاقات الدولية، بل هناك مَن نادى بضرورة نشوء علم تركيبي شامل لدراسة العلاقات الدولية، إذْ ان المقدّمات نضجت وباتت مهيّأة لذلك.

* * *

وقد صدَرت بعضُ الكتبِ مؤخَّراً تسدّ ثغرةً واضحة في التراث والفكر الفلسفيّين وتخطو خطوات إضافية إلى أمام باتجاه تطوير وإنضاج الإرهاصات الأولية المتوفّرة في هذه المسألة، بل إن خطَب وآراء كبار قادة الدول العظمى لم تخلُ من الاتجاه والانتماء صوب مزيد من التنظير الفلسفي الصريح لوضع ومستقبل البشرية والعلاقات الدولية سواءً في الولايات المتحدة الأميركية أو في الاتحاد السوفيتي.

وهنا نماذج هامة من إصدارات حديثة حول الجوانب الفلسفية للعلاقات الدولية:

1 ـ الأسس الفلسفية لنظريات لعلاقات الدولية[9]:

شارك في وضْع هذا الكتاب مجموعة من المؤلّفين ـ الاختصاصيين بالفلسفة، ويحتوي الفهرس ـ عدا المقدّمة وثبت المراجع ـ على موضوعات عدة، وهي بمثابة مقالات استعراضية من وضْع مؤلّفين مختلِفين وهم: غادْ جيبّف ل.س. الذي كتب حول «نقد إيديولوجيا وفلسفة الأمريكانية ـ القومية»؛ وكذلك پوپوف آ.ف. ـ «الاتجاه المحافظ والليبرالية بصدد السلطة السياسية»؛ ثم فيليپوف آ.ف. ـ «نظرات كارل شميت علم ـ السياسية وتأثيرها على العلم السياسي الغربي المعاصر؛ وأيضاً كولزيف آ.إي. ـ حول «البوذية، الكونفوشية بالمقارنة مع الاقتصاد السياسي الغربي وعلم الاجتماع الغربيّين»؛ وأخيراً شامْشورين ف.إي. ـ «الدراسات الأجنبية حول الإشكالية الاجتماعية ـ التاريخية في الفلسفة الهندية». ومما يلفت الانتباه بصورة خاصة استعراض ك.س. غادجيّف حول العالمية الأمريكانية وخصائصها الثقافية ـ الإيديولوجية ـ النفسية وامتداداتها وآثارها السياسية والعسكرية في العالم، لا سيما وأن للمؤلّف ـ غادجييف ـ منشورات عديدة في مجال المشكلات العالمية، ولا سيما بأبعادها وجوانبها الإيديولوجية.

وهنا مقتطفات مما جاء في مقدّمة الكتاب (ص 5 ـ 10 خاصة):

لا تقتصر العلاقات الدولية على السياسة والاقتصاد فقط، إنها الثقافة والعلم والفلسفة والتاريخ والدين... الخ، وتتمظهر العلاقات الدولية في المجالات المختلفة من النشاط الحياتي البشري»... وتلزم أيَّ شعب أسس ثقافية ـ إيديولوجية لتحقيق حد أدنى من الانسجام ولوعي الذات زمانياً ومكانياً كشعب معيّن بالتحديد، كدولة معينة، كمواطن معين... ثم يتساءل المحررون حول أسس إنشاء العلاقات الدولية: هل تعتمد هذه الأسس على تأكيد الحقّ في الاستقلال والتخلص من التبعية إيديولوجياً وثقافياً ونفسياً... الخ؟، أم على إقرار عجز «العروق المنحطّة»، وبالتالي نشدان «خير العنف» تجاهها وتبرير حقّ التدخل الثقافي ـ التاريخي والاجتماعي ـ السياسي والاقتصادي في شؤونها، وما إلى ذلك من أسس ومنطلقات بما تقود إليه من آثار

وعواقب في الممارسة السياسية الدولية؟... هذا مع العلم أن عالمنا المعاصر قائم على الارتباط والتبعية المتبادلين من النواحي الاقتصادية والإيكولوجية والثقافية - الإعلامية والتكنولوجية... الخ أكثر وأوضح مما في أي وقت سابق عبر التاريخ... ومن هنا تتضح الصلة الوثيقة الجليّة بين السياسة الدولية والعلاقات الدولية والاقتصاد - من جهة، وبين المنعكسات الفلسفية - التاريخية التي يبدو، لأوّل وهلة، أنها شديدة العمومية - من جهة أخرى... وهكذا يأتي العمل الجماعي الحالي ليستعرض أكثر نظريات العلاقات الدولية إلحاحاً، وطرق الكشف عن أسسها الفلسفية - التأملية، والتاريخية - الفلسفية، والنفسية والسوسيولوجية والدينية والتاريخية - الثقافية... الخ، لا سيما وأن هناك وجهات نظر متباينة في هذه المسائل والمناحي، منها ما يُشير إلى تأثر الثقافات واغتنائها المتبادل، ومنها ما يؤكد ويحلّل «الطرق المسدودة»؛ وغالباً ما يتطرق الحديث إلى معالجة قضايا «التأثير» و«الاقتباس» و«الأصالة» الثقافية، ولا يخلو تحليل هذه القضايا حالياً من ولادات جديدة لنظريات عرقية متنوعة تُدافع عن التوسُّع والعَداء بين الشعوب وكراهية بني البشر. ولدى مناقشة العلاقات بين الشرق والغرب، مثلا، بجذورها الهندو- أوروبية، وجوانبها المتعدّدة المتنوّعة تبدو وتغدو الظواهر الثقافية المتنوعة المعقدة مستعصيةً على التقييم - التقويم حسب المقولات الاستقطابية التي تميز مقياسَ القيمَ الثنائي الساذج:

«التراجع»، «التخلف»، «الاقتباس الكامل»، «التبعية الكاملة»، «التأثير والاشتراط الإجمالي» لبعض المناطق - من جهة، مقابل «التقدم»، «التطور المنتظم»، «الأصالة الاستثنائية» و«الاستقلالية المطلقة» لبعض المناطق الأخرى - من جهة ثانية.

إن أيّ نظرية تعالج هذه الموضوعات لا يُمكن أن تطمح إلى أكثر من الإشارة إلى هذه المشكلة الهامة أو تلك، وهي لا تحلّها بأي حال من الأحوال... ولا تخلو الإيديولوجيا السياسية من وجهات نظر حول «تنافُر» أو «تَعادي» بعض الثقافات، و«انغلاقيتها» المتبادلة أو «عدم قابليتها للترجمة» بعضها تجاه بعضها الآخر، وغالباً ما يلجأ أصحاب وجهات النظر هذه إلى البحث عن أسس اقتصادية وفلسفية واجتماعية - سياسية لدعم آرائهم، بل وتستخدم لهذا الغرض حتى الطرق التاريخية - اللغوية، ويمكن الإشارة إلى الدور الواضح، في هذا المجال، الذي تلعبه التقاليد الفلسفية التحليلية، وهنا تعالج، بخاصة، آراء ل. ڤيتغينشتين ذات الطابع الفلسفي - اللغوي التحليلي بانعكاساتها وأبعادِها التطبيقية على موضوع العلاقات الدولية.

لقد كانت مسألة نشوء ومعنى حياة وفعالية الإنسان والمجتمع في بؤرة اهتمام الدين والفلسفة دائماً، إذْ لا يخلو دين ولا منظومة فلسفية من طرح حلٍّ ما لهذه المسألة. وهناك سؤال هام غالباً ما تصدّى الفكر الاجتماعي - السياسي للإجابة عليه وهو يدور حول ماهية المواقف والمعايير الفكرية التي وجّهت وتوجه الإنسان بل وشعوباً برمّتها في طريق البحث الروحي ومحاولات التجديد والإصلاح الاجتماعي - السياسي وحتى التوجُّه الطبيعي - الفضائي، وغالباً ما كانت الإجابات على هذا السؤال مقترنةً بمحاولات التوفيق بين إنجاز حل إنساني أخلاقي - من جهة، وإنشاء سلطة حكيمة قادرة على ذلك - من جهة اخرى. ويمكن أن يعتمد حل هذه المسائل على نظريات تأملية دينية أو على نظريات علمية، كما أن الممارسة الملموسة في مجال العلاقات الدولية تعتمد على اختيار «فلسفة سلام» أو «فلسفة حرب»... وفي نهاية التقديم يُشير المحرِّرون إلى أن هناك شبهَ اتفاق من قِبَل المراقبين على أن الإدارة الأمريكية الريغانية هي الأكثر تأدُّباً خلال التاريخ الأمريكي لفترة ما بعد الحرب.

2 ـ الجوانب الفلسفية ـ الاجتماعية للعلاقات الدولية المعاصرة[10]:

شارك في وضع هذا الكتاب مجموعة من الاختصاصيين في الفلسفة أيضاً، ويحتوي الفهرس على كلمة التحرير وعلى ثلاثة عناوين أخرى هي:

ـ النظريات العالمية للتطور الاجتماعي ـ السياسي: ك. س. غادجييّف،

ـ «الواقعية» في الفلسفة السياسية للولايات المتحدة الأميركية: تبرير سياسة القوة في العلاقات الدولية: ف. ب. ساغاريف،

ـ دور تحليل المفاهيم في الفلسفة السياسية المعاصرة للولايات المتحدة الأميركية: التراث والمعاصرة: ف. إي. شمْشورين.

وتشير كلمة التحرير إلى تزايد أهمية المكان الذي باتت تشغلُه فلسفة السياسة بدءاً من ج. لوك، وت. هوبز، ون. ميكيافيللي وحتى الدراسات المتخصّصة في سبعينات وثمانينات هذا القرن، ولذا فإن المجموعة الحالية من المقالات تركّز على النظريات الايبستيمية والفلسفية ـ العامة التي تعتمد عليها الفلسفة الغربية للسياسة، ولا سيما الاتجاهات الأنجلو أميركية المعاصرة من بينها، كما يشير المحررون إلى اعتماد المجموعة على معطيات رسمية سوڤييتية جديدة في شؤون العلم والأيديولوجيا والثقافة، ويبيّنون أهمية المنطلَق ما بين ـ الاختصاصي (أو ما يسمّى عادةً أيضاً بالمنطلق متعدد ـ الاختصاص) من أجل الدراسات العلمية الحديثة وخصوصاً في المجال الفلسفي والاجتماعي ـ السياسي موضحين استخدامَهم له في هذه المجموعة، إذْ تُجرى معالجة فلسفية للجوانب المختلفة من الحياة الدولية المعاصرة (الاجتماعية ـ السياسية، الاقتصادية، الإيديولوجية، التاريخية... الخ).

وتشير كلمة التحرير في نهايتها إلى أن المجموعة موجَّهة للعاملين العلميّين ولمدرّسي الجامعات، ولكافة المهتمين بالتأمّل الفلسفي بمشكلات الحياة السياسية الملِحَّة.

***

3 ـ نظريات السلام في تاريخ الفلسفة:[11]

صدر هذا الكتاب باللغَتين الفرنسية والانكليزية بإشراف ڤينان كوْشي الأستاذ في جامعة، مونريال ورئيس الاتحاد الدولي للجمعيات الفلسفية، والكتاب يعتمد على مواد اللقاء البلغاري ـ الكندي الذي جرى في أيار سنة 1986 في جامعة مونريال؛ وموضوع الكتاب، كما نلاحظ، وكما يعبر غادجييف بحقّ، لا يزال بالنسبة للفلاسفة غير مألوف وغريباً إن لم نقل أنه مجهول.

وعلى الصعيد الدولي هناك وجهة نظر تُرجع مصدر التفكير الجديد إلى أفكار ب. راسّل وإ. اينشتين وتيْيار دي شارْدين؛ ويجب التفريق بين مصطلحَي التفكير السياسي الجديد والتفكير الجديد في عصر الفضاء. وتوجد وجهات نظر ذات طابع نفساني/ سيكولوجي/ في معالجة مشكلات الحرب والسلام، ومنها الآراء التي قدمَّتْها في هذا اللقاء المذكور ش. مْيولّيْتْ الأستاذة في جامعة كونكْوردي، والتي أكّدت من مواقع التحليل النفسي أن أسباب الحرب مجذّرة في البدايات الرجولية العدوانية وأنه يتوجَّب تأكيد وتطوير البدايات النسائية في سبيل تحقيق السلام.

وفي الكتاب تحليل انتقادي لآراء كثير من مفكّري الماضي مثل هوبز وهيوم وروسّو وسان بْير وكانط وهيغل وراسّل وبور... وبيان للطابع الادّعائي السلمي لأي حرب وكونها تنتهي دائماً لا إلى السلام، بل إلى خلق مشكلات جديدة تولِّد الحرب ثانيةً؛ وهل الفلسفة مذنبةً في كون وضع الحرب مستمراً بلا

نهاية ـ يتساءل كوْشي؟ ويجيب على ذلك مبيّناً استحالة إنكار ذنْبِ الفلسفة لأنّها على مدى قرون كثيرة لم تجرّب المسؤولية عن وضع العلاقات الدولية. . . كما أن عصرَنا بدورِه يعرف عزلة وحياد الفلسفة في هذا المجال ويخبر رضاها وقناعتها بأوهام الشمولية المبسَّطة، وهنا مثال الشكلانية الوضعية التي تنكر حق الفلسفة في التدخل في مصير البشرية، وكذا المبالغة الأسلوبية والحيادية الأخلاقية للمنطقية الوضعية [هكذا ترد التسمية في العرض الأصلي بدلاً من «الوضعية المنطقية» المتداولة في التسمية العربية المألوفة]. . .

إن السلام الأصيل في عصرنا هو، قبل كل شيء، نوعية الحياة الشخصية والاجتماعية. . . ومن الطريف الربط بين إمكانية تحقيق السلام دولياً وبلوغ مستوى إنساني لنوعية الحياة؛ كما أن وجهة نظر آ. كليموف الأستاذ في جامعة كييك اعتمدت على الربط بين الوعي والمعاناة وبين الهدوء والسلام، وعلى الوقوف مطوَّلاً عند مفهوم الإرهاب، كما كتب كليموف حول دفاع هوسّير المتحمّس عن مسؤولية الفلاسفة، إذْ اعتبرَهم الأداة التي تمارس بها البشريةُ وظائفَها.

وكان أوّل من انتبه إلى الرصيد العلمي ـ التقني الهائل للبشرية وتأثيره، جنباً إلى جنب مع الإنتاج الصناعي الضخم، كعامل ومؤثِّر ذي أهمية عالمية، ڤ. إي. ڤيرنادْسكي، وفي الوقت ذاته تقريباً تيار دي شاردان. . . إلاّ أن الوضع المعاصر للعلاقات الاجتماعية بعيدٌ كل البعد عن مستوى تقدم العلم والتقنية. ومن النتائج التي تمخّض عنها اللقاء العلمي المذكور أن المثل القديم: إذا كنتَ تريد السلام فعليك بالاستعداد للحرب ـ انتهى مفعولُه ويتوجب تغييرُهُ. . . [ونستطيع أن نؤكِّد هنا أنَّ تقادم المثل الشعبي على مستوى العالم والعلاقات الدولية أو في خصوصيات المرحلة التاريخية الحالية لا يعني بحال من الأحوال تقادمَه أو انتهاء مفعوله في الوضع العربي أو الشرق ـ أوسطي، حيث يواجهُ العربي شراسة واستعدادات عسكرية عنصرية عنيدة ومتطاولة على أيّ تنظيرات أو إجراءات دولية أو إنسانية]. . . كما يُشار إلى أن تَفادي مأْساة عالمية محتمَلة يعتمد على إقرار التفكير الجديد والقيم الجديدة وبلوغ مستوى جديد من النوعيات الأخلاقية التي تسمح باستخدام الجبروت التقني المتصاعد بصورة إنسانية، لأجل الإنسان وحريتِه؛ فالسلام اليوم يتوجَّب أن يُفهَم باعتبارِه عملية نشوء مجتمع أكثر إنسانيةً. وهكذا فإن المؤلِّفين يطرحون مسألة ضرورة إعادة النظر جدياً بمجمل فلسفة العلاقات المتبادلة بين الشرق والغَرب، بين الاشتراكية والرأسمالية، بين نظامَين اجتماعيَّين متواجدَين على كوكبِنا في ظروف معقَّدة من عصرِ النواة. وهذه دعوة، عملياً، لإعادة النظر تماماً بقناعات ومنطلقات أحادية كثيرة فقدتْ مفعولها في ظروف عالم القرن العشرين المتَّسمِ بالتبعية المتبادَلة. . . ويجب الانتباه إلى أن أحداً لا يستطيع احتكار التفكير الجديد الذي يتولَّد كظاهرة عالمية أممية متشّرباً بأفكار ومعايير ومبادرات الفئات الاجتماعية المتبايِنة جداً.

لقد عبّر كوشي عن رغبتِه في أن يسير التفكير الفلسفي حول السلام بخطىً حثيثة، ولا سيما باتجاه فتح الطريق أمام علاقات شخصية جديدة وأنواع جديدة من الممارسة الاجتماعية.

4 ـ الإيديولوجيا والسياسة الخارجية [مشكلات التنظير المقارن][12]:

هذا هو عنوان كتاب الأستاذ في جامعة أوپسالا (السويد)، والعامل في معهد المشكلات العالمية في ستوكهولم والتركار لِسْنِسْ؛ وهو يُفرز ثلاثة معانٍ واسعة الانتشار لمفهوم الأيديولوجيا في مجال السياسة الخارجية، أوَّلُها يرتكزْ على اعتبار السياسة الخارجية

للدولة في جوهرها تعبيراً عن إيديولوجيتها المميّزة، وثانيها يرتكز ليس على كشف جوهر السياسة الخارجية بل على كيفية مفهوم الأيديولوجيا في الأدبيات المهتمة، أمَّا التفسير الثالث والغالب للأيديولوجيا فيُستخدَم لاستخلاص روابط السبب ـ النتيجة، أي الروابط السببية.

ويعتقد كارْلِسْنِسْ أن الصيغة المعروفة «السياسة هي فنّ الممكن» تنطبق بمصداقية إضافية على السياسة الخارجية... ومهما يكن من أمر فإن السياسة الخارجية لأي دولة هي استمرار لسياستها الداخلية... إن «فن الممكن» يضع حدوداً معينة لأدْلجة السياسة الخارجية ـ من جهة، ومن جهة أخرى تضع الأيديولوجيا حدوداً معينة لإمكانية تحرّك الدولة بحيث لا يجري تجاوزُها دون إحداث ضرر بالمبادىء الأساسية لنظامِها الاجتماعي ـ السياسي؛ ويركز المؤلِّف جلَّ اهتمامِه على الوقائع السياسية ـ الخارجية أكثر مما على الذوات المرتبطة بها. إن الموضوع المطروح هنا ذو أهمية كبيرة للتأمُّل الفلسفي ذاته، بغض النظر عن آراء المؤلِّف ذاته ومدى دقتِها أو موضوعيتها. إذْ ان قضايا التناسب بين الأيديولوجيا والسياسة عموماً ودور الأيديولوجيا في السياسة الخارجية خصوصاً، وكذلك الكشف عن القوى المحركة للسياسة الخارجية هي من القضايا التي يمكن أن تهمّ الفلاسفة بالدرجة الأولى.

***

الحواشي

(1) ف. ق. زغلادين: «مشكلات دراسة العمليات الكوكبية للتطور العالمي»، مجلة «قضايا الفلسفة»، ع 9، سنة 1981، ص 30.

(2) المشكلات العالمية للعصر، موسكو، دار «الفكر» 1981، ص ص 10، 13.

(3) إ. فرولوف: الإنسان والإنسانية في ظروف المشكلات العالمية، مجلة «قضايا الفلسفة» ع 9 سنة 1981، ص 32.

(4) المرجع السابق، ص 34.

(5) ف. كونستانْتينوف: فلسفة السلم والتفاؤل الاجتماعي، جريدة «البرڤدا»، موسكو، 24 آذار عام 1982.

(6) ب. ن. فيدوسييف: المشكلات العالمية للبشرية ودورُها في العالَم المعاصر، من كتاب «المناحي الاجتماعية للمشكلات البيئية»، دار «العلم» (ناؤوكا)، موسكو، 1982، ص 22 - 23.

(7) بيوتر فيدوسييف: ديالكتيك الحياة الاجتماعية، مجلة «الثقافة الجديدة»، ع 134، ص 44.

(8) دراسات المشكلات العالمية، مجلة «قضايا الفلسفة»، ع 10 سنة 1982، ص 155.

(9) الأسس الفلسفية لنظريات العلاقات الدولية، الإصدار الأوّل، مجموعة مراجعات واستعراضات، موسكو عام 1987، من سلسلة «مشكلات الفلسفة في الخارج» (تصدر عن معهد «إينيون» التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية)، لمجموعة محررين بإشراف مشْقيْنيرادْزي ف. ف. المحرر المسؤول عضو ـ مراسل في أكاديمية العلوم السوفييتية، 146 ص.

(10) الجوانب الفلسفية ـ الاجتماعية للعلاقات الدولية المعاصرة: مجموعة مراجعات واستعراضات، موسكو، 1987، من سلسلة «مشكلات الفلسفة في الخارج» (تصدر عن معهد «اينيون» التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية)، لمجموعة محررين بإشراف مشْقيْنيرادْزي ف. ف. العضو المراسل في أكاديمية العلوم السوفييتية، 131 ص.

(11) كوشي ف. نظريات السلام في تاريخ الفلسفة: مراجعة ف. راتْشكوف، دكتور فلسفة في الفلسفة*:

Cauchy V.(ed.) CONCEPTIONS DE LA PAIX DANS L'HISTOIRE DE LA PHILOSOPHIE Montréal Éditions Montmorency,1987, 174p.

(12) كارْلْسْنِيْس ف. الإيديولوجيا والسياسة الخارجية، مشكلات التنظير المقارن: مراجعة ك. غادْجييف، دكتور علوم في التاريخ**:
Carlsnes W.IDEOLOGY AND FOREIGN POLICY Problems of Comparative Conceptualization New York, Basil Blackwell, 1987, 234p.

ملاحظات:

(*) توجد في العربية ترجمة لآراء «راسّل» الفلسفية في السلام منذ عدة عقود، وقد قام آ.آ. ياكوفْلِف بترجمة بعض آراء راسّل الفلسفية ـ السلمية لأوّل مرة ـ حسب علمي ـ إلى الروسية على شكل مقالتين منشورتَين في مجلة «قضايا الفلسفة»/ ع 5 سنة 1988، ص 131 -136/ بعنوانَي: «البشرية في خطر» و«خطوات إلى السلام»، وربما كان لمناخ «اليريسترويكا» تأثير على اختيار هذا الموضوع للترجمة، لا سيما وأن كتاب «راسّل» ـ تاريخ الفلسفة الغربية، مثلاً منشور بالروسية منذ زمن.

(**) في مجال تأثر الأيديولوجيا والفلسفة مع السياسة الخارجية تجدر الإشارة إلى تقرير ألقاه غ.ا. فوغِل رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في 13 أيار 1988 في معهد الاقتصاد العالَمي والعلاقات الدولية التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، في موسكو، بعنوان «الفلسفة السياسية الخارجية للحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني» وهو منشور في المجلة التي تصدر عن المعهد ـ مجلة «الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية»/ ع 7 سنة 1988، ص 33 - 39/، وعلينا أن نلاحظ أيضاً صلة ظاهرة اتساع العلاقات العلمية ـ الثقافية وغيرها بين الغرب والشرق مع المناخ الدولي المتجدد، وتأثير «البيريسترويكا» على الحِوار مع الفكر «الأجنبي».